

الآخر في شعر إقبال

د/تبسم منهاس

قسم اللغة الاردية وادبها

كلية الدراسات الانسانية جامعة الازهر، فرع البنات
 إن أهم ما يميز فكر العلامة محمد إقبال هو أنه فكر مستنير صقلته
 الدراسة المستفيضة لمنابع الثقافة الإسلامية التي تربى عليها منذ صغره،
 ثم دراسة الثقافات المغايرة التي يعتنقها من هم على غير ثقافته، وهو في
 الحالتين يعمل عقله وفكره، ويجعل الحق هدفاً لا يحيد عنه، ومن هنا
 وجدناه يبدي احتراماً وتقديراً للإنسان بصفة عامة، ويقدم أهل الحق
 كمثال يحتذى به الناس جميعاً، وربما كان الجانب الإنساني في أشعار
 إقبال هو أحد العوامل الهامة التي كتبت له القبول بين من طالعوا شعره،
 رغم اختلافهم معه في الدين واللغة والثقافة، إذ أن ما يميز شعر إقبال في
 الحقيقة هو احترامه للإنسان وتكريمه، وحثه على البعد عن الصراعات
 الممقوتة، والتي تنبع عن الإحساس الزائف بالنفوق لجنس على الآخر،
 فنراه يؤكد دائماً على حقيقة أنه لا يوجد دين من الأديان يدعو إلى
 كراهية الآخرين واحتقارهم، وأن الأرض لله تعالى يملكها وحده لا غيره،
 وما الإنسان إلا مستخلف فيها، عليه أن يعمل على تعميرها، وإشاعة
 العدل والخير والسلام فيها، يقول في مقطوعة له بعنوان "الأرض
 لله" (١):

❁ أيملك الحي تراب الثرى وجسمه عما قليل إلى تراب

❁ ليست لي الدنيا وليست لكم فالعمر فيها مثل ومض الشهاب

❁ الأرض لله وسكانها الكل منه وإليه المآب [٢]

ولهذا فإنه على الرغم من أن نسبة كبيرة من أشعار إقبال تناولت المسلمين من الشرق والغرب، ممن برز فيهم جانب من الجوانب الإنسانية الطيبة، وكان لهم تأثير واضح في أنشطة الحياة المختلفة، بل إن إقبال نفسه قد تأثر من بعض هؤلاء تأثراً عظيماً، ولعب بعضهم دوراً محورياً في حياته بحيث حدد معالم مستقبله، ووجهه الوجهة التي هو عليها، وهذا راجع في الحقيقة إلى خلو شخصية إقبال من التعصب، وإلى سعة الفكر لديه، حيث كان ينشد بناء الإنسان الحق، حتى المسلم نفسه، إذا لم يتصف بصفة الإنسان الحق، لفت إقبال نظره، وذكره بأن الإسلام دين إنسانية، وأن المسلم إذا لم يتصف بالصفات الإنسانية الراقية، فإن هذا يعني أن هناك نقصاً في إسلامه، وأنه لم يعرف الإسلام معرفة صحيحة. وأكمل مثال في نظر إقبال هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي ينبغي اتباعه والاحتذاء به، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى، وإنما كل ما أتى به وحى من السماء، ولذا فإن اتباع سنته يضمن للإنسان نعيم الدنيا والآخرة، يقول إقبال:

إن وفيت لمحمد فنحن لك

ولك اللوح والقلم، وليس الدنيا فقط [٣]

ويقول:

• سترفع قدرك الأقدار حتى :: تشاهد أن ساعدك القضاء

• وقيل لك احتكم دنيا وأخرى :: وشأنك والخلود كما تشاء [٤]

وكل ما عدا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يؤخذ من كلامه ويرد عليه، والمعيار في ذلك هو الحق، وبقدر اقتراب الإنسان من الحق، بقدر ما يعتز به إقبال، ويفرد له في شعره مكاناً، حتى قال:

• سأصبر عبداً لمن يعبده [٥]

ومن هنالم يكن مستعبداً ن يتناول إقبال في شعره شخصيات على غير دينه يقدر أصحابها، بل ويعزز بصداقتهم، ويحزن لفراقهم، لما اتسمت به هذه الشخصيات من صفات إنسانية راقية. وحب للخير لكل البشر، ومن هؤلاء "سوامي رام تيرته" الهندوسي الذي كان صديقاً لإقبال، ونذر حياته لخدمة بلاده وأهلها، حتى اتهمه بعض الناس باختلال العقل والجنون حين استقال من وظيفته من أجل تحقيق الهدف الذي نذر حياته من أجله رغم أنه كان فقيراً، وعند ما سمع إقبال بهذا الاتهام قال: "لو أن هذا الرجل مجنون فإنه لا يوجد على ظهر الأرض عاقل" (٦). وبعد عمر لم ينعد الثامنة والثلاثين سنة زار خلالها اليابان وأمريكا ومصر مات غريقاً في نهر "كنكا"، فرثاه إقبال بمقطوعة من ستة أبيات تحمل اسمه، وصفه فيها بأنه كالجوهره التي يندر أن تجدها نظيراً، وأنه بوفاته بهذه الطريقة كشف أسرار الحياة التي لا يعرفها الكثيرون، وأن قلبه عارف بالحقيقة، وأنه عاشق صادق، يقول:

• لقد عانقت النهر أيتها القطرة القلقة، كنت قبلاً لؤلؤة، والآن أصبحت نادراً.
• آه، ما أجمل الطريقة التي كشفت بها سر الحياة، بينما أنا لم أفهمها إلى الآن.
• انتهى صخب الحياة، وصار ضجيج يوم الحشر، انطفأت هذه الشرارة لتصير معبداً للنيران.

• نفى الذات معجزة القلوب العارفة، ولؤلؤة "إلا الله" كامنة في نهر "لا".
• ومعنى النهاية خاف على العيون غير البصيرة، فعندما يتوقف اضطراب الزئبق يصبح فضة خالصة.

إبراهيم العشق يحطم صنم الوجود، فكأن نشوة نهر تسنيم

دواء للشعور [٧]

ولم يقف اختلاف الدين والثقافة حائلاً دون هذا التواصل الذي لم يبلغ كون "سوامي رام تيرته" آخر، وإنما وضعه إقبال ضمن منظومة الإنسانية الراقية التي ينشدها.

كما تناول إقبال في شعره "سري رام جندر جي"، وامتدحه في مقطوعة بعنوان: "رام" من ستة أبيات، ذكر فيها أن الهند تفخر به، وأنه كان فارساً مغواراً شجاعاً عفيفاً يمتلئ حباً عشقاً. يقول:

- ❖ كأس الهند ملئ بخمر الحقيقة، وخلبت الهند لب فلاسفة الغرب.
- ❖ ونتيجة لفكر الهنود الرفيع، صار سقف الهند أعلى من السماء.
- ❖ لقد عاش في هذا البلد آلاف من الأبطال، ذاع بفضلهم صيت الهند في العالم.
- ❖ تفخر الهند بوجود "رام" ويؤمن أهل البصيرة بأنه إمام الهند.
- ❖ إنه إعجاز مصباح الهداية هذا أن مساء الهند أكثر ضياء من الصباح.
- ❖ كان كحد السيف، متفرد في الشجاعة، ولا نظير له في العفة وصدق

الحب. [٨]

ولكن هذا لم يمنع إقبال في منظومة له بعنوان "نيا شواله: المعبد الجديد" في صفحة (٢٠٤) من ديوانه (بانك درا) من أن يتوجه بالنقد إلى البراهمة وكهنة المعابد الهندوس عاتباً عليهم هذه العداوة التي يكنها البعض منهم لأبناء وطنهم "من المسلمين" إذ أنه بالحب وحده تطمئن قلوب أهل الأرض.

وتناول كذلك "كورو نانك" مؤسس الديانة السيخية، واصفاً إياه بأنه أعاد إلى الهند ضياء المعرفة ثانية بعد أن فقدته عندما لم تلق بالآ إلى تعاليم "كوتم بد ه"، وامتدحه مع "كرو بد ه" أو "بوذا" في مقطوعة من

ثمانية أبيات قال فيها:

❖ لم يلق القوم بالآلى رسالة "كوتم"، ولم يعرفوا قدر جوهرتهم.
❖ آه، لقد ظلوا تعساء في غفلة عن صوت الحق، كالشجر يظل غافلا عن
حلاوة ثماره.

❖ لقد كشف لهم سرّ الحياة، لكن الهند وأهلها هائمون بفلسفتهم الخيالية.
❖ ليس هذا هو ذلك المحفل الذي أضاءه شمع الحق، لقد نزلت أمطار
الرحمة، لكن الأرض غير صالحة.

❖ آه، إن الهندية أحزان للمبوزين، ولا يعرف قلب هذا البلد العطف الإنساني
❖ البراهمة منتشون بخمر الغرور، بينما شمع "كوتم" ينير محافل الآخرين.
❖ لكن المعبد أضاء ثانية بعد مدة، وأضاء بيت آزر بنور إبراهيم.

❖ وتعالى صوت التوحيد في النهاية من أرض البنجاب، وأيقظ الرجل
الكامل الهند من الأحلام. (٩)

وتناول كذلك "كارل ماركس"، وتحدث عنه في مقطوعة من
ثلاثة أبيات بعنوان "صوت كارل ماركس" يوجه فيها خطابه إلى العلماء
والفلاسفة الذين يؤيدون الرأسمالية فيقول:

❖ قطع العلم والحكمة، وهذا الاستعراض للجدل، لكن الدنيا الآن لا
تستسيغ عرض الأفكار القديمة.

❖ ما الفائدة من كتبك يا فيلسوف الاقتصاد، ليس فيها غير خطابات
معقده، واستعراض زائف للتعاطف والمواساة.

❖ في معابد الغرب وكنائسهم ومدارسهم يخفي العقل المخادع مآسي
الهوس والطمع. [١٠]

وقدم "لينين" في أشعاره من خلال مقطوعة بعنوان "لينين في

حضرة الله“ من اثنين وعشرين بيتاً قص فيها على لسانه في الحضرة الإلهية مدى الظلم الذي يتعرض له العمال والفقراء في العالم، وأن الرأسماليين يمتصون دماء هذه الطبقات الكادحة، وأن العالم كله في انتظار تدخل القدرة الإلهية حتى تعيد الأمور إلى نصابها، ويعتدل ميزان العدل، يقول:

• أنت عدل، وأرى العمال في عيشة ضنك، وبؤس واكتئاب

• ورؤوس المال يجري فلکها فمتي يغرقها طامي العباب

• عالم الإنسان يا رب الوری في انتظار العدل من يوم الحساب [١١]

صحيح أن إقبال هاجم الشيوعية فيما بعد عند ما تكشف خطرها،

وذلك لأن إقبال يدور في فلك الحق، ويعرف الرجال به.

هذا ونستطيع تقسيم حياة إقبال إلى مرحلتين رئيسيتين باعتبار

تعامله مع الآخر واحتكاكه به. والآخر هنا نقصد به كل من كان على غير

دين إقبال، وكذا كل ثقافة، أو حضارة تغاير ثقافة إقبال وحضارته، وربما

دخل ضمن إطار ”الآخر“ من كان على دين إقبال وثقافته وحضارته، لكنه

يهدد كل البعد عن الالتزام بالدين وتطبيق معطيات هذا الحضارة)

والاعتزاز بها.

أما المرحلة الأولى، فهي التي تنتهي بعودته من أوروبا بعد

حصوله على الدكتوراه عام ١٩٠٨م، وفي بداية هذه المرحلة لم يكن

”الآخر“ واضحاً في شعر إقبال الأردني، وذلك أمر طبيعي، إذ أنه لم يكن

قد تعمق بعد في دراسة هذا الآخر، وبالتالي لم تكن فكرة مواجهة ”الآخر“

ومصارحته قد تبلورت بعد في فكره، وإنما انحصر ”الآخر“ عنده في

شكليين أساسيين، أولهما: التأثير بهذا ”الآخر“ من خلال الاطلاع على

الأدب الغربي وتأثره ببعض ما فيه أثناء عمله في الكلية الإسلامية كمدرس

للغة الإنجليزية، وبالتالي محاولة ترجمة هذا البعض إلى الشعر الأردني، وهو ما نراه في ترجمة بعض المنظومات لشعراء غربيين، ومن هذه المنظومات منظومة للشاعر الأمريكي "لانس فيلو (١٢) بعنوان "DAY BREAK"، وقد ترجمها إقبال تحت عنوان "بيام صبح: رسالة الصباح" وهي ترجمة حرة تجعل القارئ - إن لم يصرح إقبال بأنها ترجمة - يعتقد بأنها من نظم إقبال، وربما كان البيت الأخير من المنظومة هو الوحيد الذي يوحي بأنها مترجمة إذا قرأ بالتوازي مع نظيره من منظومة "لانس فيلو" (١٣).

ومن هذه المنظومات كذلك منظومة للشاعر "تيني سن" (١٤) بعنوان "LOVE AND DEATH"، ترجمها إقبال بعنوان "عشق اور موت: العشق والموت"، وهي ترجمة حرة كذلك، أجاد فيها إقبال أيما إجادة.

ومن هذه المنظومات أيضاً منظومة للشاعر الأمريكي "آر دبليو إيمرسن" (١٥) بعنوان "THE MOUNTAIN AND THE SQUIRREL"، وترجمها إقبال بعنوان "بهار اور كلهری: الجبل والسنجاب". وهناك منظومات أخرى غير التي ذكرناها، أخذها إقبال عن شعراء غربيين في هذه المرحلة الأولى من حياته، وكلها مجرد تأثر مما نظمه هذا "الآخر" من الغرب. وفي هذه المرحلة بالذات كانت هناك شخصية غربية أخرى أثرت في شخصية إقبال، وفي مجرى حياته وهو البروفيسير "توماس آر نولد" (١٦) الذي كان يدرّس لإقبال الفلسفة خلال دراسته في الكلية الحكومية في "لاهور"، وهو الرجل الذي تعلق به إقبال لدرجة جعلته يسعى حيثاً في السفر إلى أوروبا "إنجلترا" وراء أستاذه

الذي كان قد بلغ سن التقاعد وعاد إلى وطنه عام ١٩٠٤م، وسوف نرى لهذا الرجل أثراً عظيماً على فكر إقبال ومسار حياته حين سافر إلى أوروبا، وتواجه فيها مع "الآخر" مواجهة مباشرة، ولذا لا نعجب حين نقرأ لإقبال منظومة في هذا الرجل كتبها شوقاً إليه قبل أن يسافر هو إلى أوروبا لاستكمال دراساته العليا، وجاءت هذه المنظومة بعنوان "نالء فراق: أنه الفراق" ووصفه فيها بأنه "قمة سيناء العلم" (١٧)

ولم يقتصر تأثير إقبال بالآخر في شعره في المرحلة الأولى على شعراء ومفكري الغرب فقط، وإنما تأثر كذلك ببعض ما عند الآخر في الشرق، ومثالنا على ذلك منظومته "آفتاب: الشمس" (١٨) المأخوذة من كتاب "الرجويد" المقدس في الهند القديمة، والتي ترجمت إلى العديد من لغات الغرب، وإن لم تصل إلى مستوى الأصل الموجود في اللغة السنسكريتية.

لقد سافر إقبال إلى أوروبا عام ١٩٠٥م، وعاد منها عام ١٩٠٨م بعد أن نال درجة الدكتوراه، وكانت هذه الفترة حاسمة في حياة إقبال وشعره، إذ رأى فيها هذا "الآخر" رأي العين، وعاش على أرضه وفي واقعه، ودرس حضارته وثقافته، ووصل خلالها إلى قناعتين هامتين، ثبت على إحداهما وتراجع عن الأخرى؛ فأما التي ثبت عليها فهي أنه وصل إلى يقين بأن الإسلام هو دين البشر كافة بحق، وأنه الدين القويم الذي يمنح بالالتزام به - الفلاح في الدنيا والآخرة، فكرس حياته من بعد لخدمته والدعوة إليه.

وأما القناعة الثانية التي تراجع عنها إقبال فهي التي أشرنا إليها آنفاً، فهي أنه عندما وصل إقبال إلى لندن، وشاهد بنفسه ذلك الفارق

الكبير بين ما وصلت إليه إنجلترا من تطور وتقدم، وبين الحال التي عليها بلاده، وأخذ يبحث في الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، ودرس الفلسفات الغربية المختلفة مع دراسته للدين الإسلامي دراسة وافية، واكتشف أن الإسلام لا يمكن أن يكون سببا في تخلف أمة من الأمم، بل على العكس، فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى الأخذ بأسباب التطور والتقدم، والعمل على تسخير الكائنات، ولذا فإن السبب الرئيسي في حالة التراجع التي يعيشها المسلمون هو تخلي المسلمين عن تعاليم دينهم وهجرتهم لأحكامه. عندئذ اعترت إقبال حالة نفسية من الصراع الداخلي، والحزن الشديد، حتى بدا له أن الشعر مضيعة للوقت والجهد، وأنه باعتباره أحد أفراد المجتمع الإسلامي، ومنوط به دور في تقدم هذا المجتمع، وعليه أن يقوم به، لذا قرر إقبال أن لا يقرب الشعر.

وفي تلك الأثناء كان "الشيخ عبدالقادر" مدير مجلة "مخزن" الأدبية - التي كان إقبال يكتب لها شعرا - في رحلة إلى بريطانيا، وقيم في لندن، فلما أخبره إقبال بنيته في ترك قرض الشعر أصابت الشيخ صدمة كبرى، وأخذ يؤكّد لإقبال أن شعره ليس من ذلك الشعر الذي ينبغي أن يترك، وإنما من الممكن أن يكون في شعره دواء للأمراض التي أصابت مجتمعه وأمته، ولذا عليه أن يواصل كتابة الشعر بما أعطاه الله من موهبة لا تتوفر إلا للندرة القليلة.

لكن إقبال لم يقتنع بقول الشيخ اقتناعا تاما، عندئذ كان لا بد أن يبحث الشيخ عن طريقة ما تثني إقبال عن قراره هذا، وإلا كانت الخسارة فادحة، ففكر حينئذ فيمن يمكن أن يكون له تأثير على إقبال، فلم يجد غير "السيرة ماس، آر نولد" بما يعرفه عنه من شخصية قوية وحب لإقبال

تقدير له، وبما يعلمه كذلك من حب إقبال وتقديره له هو الآخر، فعرض الشيخ على إقبال أن يرجئ تنفيذ قراره بترك الشعر حتى يستشير أستاذه "السير آر نولد"، واتفق "الشيخ عبدالقادر" مع إقبال على أن يتوقف القرار الأخير على ما يقوله "آرنولد"، فإن اتفق رأي "آرنولد" مع رأي إقبال، ترك الشعر، وكرس وقته في عمل آخر يراه إقبال أكثر نفعاً، أما إذا اتفق رأي "آرنولد" مع رأي "الشيخ عبدالقادر" فإن على إقبال حينئذ أن يلتزم به، وألا يترك الشعر مهما كانت الظروف ووافق إقبال .

وجاء رأي السيد "آرنولد" موافقاً لرأي "الشيخ عبدالقادر" في أن شعر إقبال عمل يفوق في أهميته كثيراً من الأعمال التي ربما يراها إقبال أكثر فائدة من الشعر، وكان موقفاً له أكبر الأثر في مسيرة الشعر الأردني ورواجه، ولولاه لحرمت الأمة الإسلامية من هذا الشعر الذي بث الروح في مسلمي شبه القارة الهندية بشكل خاص حتى أخرجهم من بأسهم، وأعاد إليهم الأمل في الحياة، وخلق لهم وطناً مستقلاً "باكستان" ولحرمت الإنسانية كلها من تراث أدبي رفيع المستوى. هذا وقد تحدث العلامة إقبال عن أستاذه "السير توماس آر نولد" في منظومة من خمس مقطوعات، كل مقطوعة من ثلاثة أبيات، وجاءت تحت عنوان (ناله فراق "آرنولد كي ياد مين": أنه الفراق "في ذكرى آر نولد")، وكتبها إقبال عام ١٩٠٤م، ونشرت وقتها في مجلة (مخزن) عدد مايو ١٩٠٤م، وعلق عليها إقبال بنفسه قائلاً: "لقد ترك فراق أستاذي السيد آر نولد عليّ أثراً كبيراً بحيث لم ينعم قلبي بعدها براحة أو سكون، وذات يوم أتى بي الخيال وأوقفني أمام بيته، وأنطقني هذه الأبيات التي اضطرنني أحبابي إلى نشرها. وعلى الرغم من أن العديد من الجلسات قد عقدت توديعاً له عند

رحيله ، وقدمت فيها العديد من القصائد والمنظومات ، وهذه المنظومة كتبت بهذه المناسبة كذلك ، لكن لأنها تحوي تأثيري الشخصي والأليم بـرحيله ، لذا رأيت من غير المناسب قراءتها في جلسات عامة ، هذا وقد ازداد حزني وشجني بعد رحيل (السيد آر نولد) كثيرا ، وأنتج ذلك العديد من التغييرات في المنظومة ذاتها". يقول إقبال:

المقطوعة الأولى:

• أيها البيت ، لقد رحل صاحبك في النهاية إلى الغرب واستقر هناك آه ،
لم تعجبه أرض المشرق .
• لقد تيقن قلبي اليوم من حقيقة أن ضوء نهار الفراق ليس أقل من
ظلام الليل .

☆ منذ أن تخيرت عيني حرقه الحيرة من حضن وداع المحبوب
نامت هذه الحرقه في عيوني مثل الشمع المنطفئة .

المقطوعة الثانية:

• أنا قتيل الوحدة ، أضطرب من الزحام أخرج في ثورة الجنون من
المدينة إلى الصحراء .
• أتعب القلب بذكرى أيام الأسلاف ... ثم آتيك مهرولا لأنال السكينة .
• ورغم أن جدرانك وأبوابك مألوفة لي ... لكن الغربة تبدو من طريقي وأسلوبتي .

المقطوعة الثالثة :

• كادت ذرة قلبي تتعرف إلى الشمس وكادت هذه المرأة المحطمة
تعكس العالم بداخلها .
• وكاد نخيل آمالي يخضر وينع من كان يدري أنني كنت على
وشك أن أصبح شيئا عظيما .

• لكن سحب الرحمة سحبت أذيالها من حديقتي ورحلت أمطرت
براعم قلبي قليلا ثم رحلت .

المقطوعة الرابعة:

☆ أين أنت يا كلیم قمة طور العلم ... كانت أمواج أنفاسك تزيد فرحة
العلم .

☆ أين ذلك الشوق الآن للهيم في صحراء العلم .. جنون العلم في رؤوسنا
كان بفضلك .

☆ أين ليلتي وجمالها لتخلق الجنون بها .. لنجعل تراب المحنون غبار
قلب الصحراء .

المقطوعة الخامسة :

☆ ستحل صحراء الجنون عقدة قدرتي وسأحطم وثاق البنجاب وأصل
إليك .

☆ ينظر البصر الحائر إلى صورتك ولكن كيف يطمئن القلب العاشق
للقدر بالصورة .

☆ فم الصورة لا يملك النطق، لكنه حديث الصورة ذلك الذي نسميه صمتا .

[١٩]

لقد درس إقبال في أوروبا، وعاش فيها ثلاث سنوات لمس خلالها
مدى تقدمهم العلمي، وتفوقهم في مجالات الحياة، وفي الوقت نفسه
رأى ما يحمله تقدمهم وتفوقهم هذا في طياته من نقائص وعيوب، وعلم
أن هذه المدنية الغربية التي تحتاح العالم وتبهر أنظار أبنائه، تفتقد إلى
الأساس المتين الذي يمكن أن يكتب لها السيادة والدوام، هذا الأساس
هو الجانب الروحي، وحضارة الآلات تسحق تحت عجالاتها كريم الشيم

وجميل الخصال كما يقول إقبال نفسه:

☆ حكومة الآلات موت للقلب، فالآلات تسحق إحساس المروءة. [٢٠]
لقد أهملت المدنية الغربية- في نظر إقبال- الجانب الروحي،
فكانت كمثّل عشّ مبني على غصن واهن ضعيف، إن لم ينتبه له صاحبه،
ويعمل على تقوية أركانه، واستكمال جوانب النقص فيه، فلا بدّ أنه
سيسقط ذات يوم لا محالة، ولذا رأينا إقبال يحذر المسلم من الانبهار
بهذه المدنية والانسياق الأعمى وراءها، ويحثه على أن يكون محتاطا في
التعامل معها، ولن يكون هذا إلا بأن يكون لديه وعي كامل بها، وأن
يتعرف إلى ذاته ويكتشفها ويقدمها إلى العالم بشكلها الصحيح. ومن هنا
هاجم إقبال بعض جوانب المدنية الغربية، وأعلن أنها ستقضي على نفسها
بنفسها إن داومت على إهمال الجانب الروحي للإنسان، يقول إقبال
مخاطباً الغربيين:

☆ يا أهل الغرب، إن أرض الله ليست دكانا، وما تعتقدونه ذهباً خالصا
سيفقد قيمته الآن.

☆ سوف تنتحرم دنيّتكم هذه بخنجرها، والعش الذي يبني على غصن واه
لا يدوم أبدا. [٢١]

ثم يشير في أحد أحاديثه في لندن عام ١٩٣١م أثناء اشتراكه في
مؤتمر "المائدة المستديرة" إلى ما كان قد أعلنه في قصيدته سابقة الذكر
التي كتبها عام ١٩٠٧م قائلا:

"إن ألدح خطأ ارتكبه أوروبا هو فصل الدين عن الدولة،
فقد حرمت هذه الخطوة الخاطئة ثقافة الإنسان الأوروبي من الروح
الخلقية، ووجهتها نحو المادية الإلحادية، وكنت قد اكتشفت عيوب

هذه المدنية قبل خمسة وعشرين عاما..... إن الحرب العالمية عام ١٩١٣م إنما كانت نتيجة محتومة لهذه الأخطاء الفادحة التي

ارتكبتها الشعوب الأوروبية من فصل الدين عن الدولة". [٢٢]

وبدا لإقبال حينئذ أنه لن يصادف في الغرب ما وجدته في الشرق، فقال:

• لقد بحثت يا إقبال في أوروبا بلا جدوى عن ذلك الشيء الذي

تتميز به الحسنات في الهند [٢٣].

ورغم صحة كل هذا، إلا أنه لم يمنع إقبال أبدا من إبداء إعجابه

بكثير من شخصيات الغرب ذات البعد الإنساني، فتناول الشاعر

والمسرحي الإنجليزي المعروف "شيكسبير" (متوفى ١٦١٦م) في

مقطوعة من سبعة أبيات بعنوان "شيكسبير" واصفا كتاباته بأنها مرآة

لقلب الإنسا. يقول:

• جريان النهر مرآة لشفق الصباح، وصمت المساء مرآة لصمت المساء.

• وأوراق الورد لجمال عوارض الربيع، ودوران الكأس مرآة لمحوبة

الخمير.

• الجمال مرآة الحق، والقلب مرآة الجمال، وجمال كلامك مرآة لقلب

الإنسان.

، وكمال الوجود من فكرك الذي يطاول السماء، فهل كانت فطرتك

المضيئة هي مآل الوجود؟!.

• عند ما بحثت عنك العيون المشتاقة، رأتك شمسا كامنة في ضوء الشمس.

• ظل وجودك محتجا عن عين الدنيا، ورأت عينك العالم على حقيقة.

• إن الفطرة تعشق إخفاء أسرارها، ولن تخلق عار فابا لأسرار مثلك ثانية. [٢٤]

وتناول إقبال كذلك "نابليون" (متوفى ١٨٢١م)، إذ ألقى الضوء

على سعيه الدائب لكي يصبح شيئاً ذا قيمة، حتى صار من أكبر قادة أوروبا العسكريين، وقد امتدح إقبال هذا الجانب فيه في مقطوعة بعنوان "على ضريح نابليون" من ستة أبيات قال فيها:

• قدر هذه الدنيا المليئة بالجهد والاجتهاد سرّ دفين، وأسرار القدر يكشفها حماس العمل.

• بفضل حماس العمل يشع سيف "الاسكندر" حرارة تذيب جبل "ألوند".

• بفضل حماس العمل عم سيل "تيمور" ما ذا تعني الارتفاعات والانخفاضات أمام السيل.

• بفضل حماس العمل يصير تكييز رجال الله صوت الله

• لكن فرصة العمل لمحات قليلة، وليالي القبر الطويلة عوض عن هذه اللمحات.

• إن ندياة مطافنا هي وادي الصمت، فارفع الصوت الآن في قبة الأفلاك. [٢٥]

كما تناول إقبال كذلك "نيتشه" الألماني المعروف الذي كان

إقبال - رغم اختلافه مع نظرياته - يصفه بأنه "مؤمن القلب كافر الذهن" وينطلق عليه "درويش الإفرنجية"، وتحدث عنه في مقطوعة تحمل اسمه من ثلاثة أبيات قال فيها:

• لم يستطع الحكيم أن يفهم معنى التوحيد، إذ لا بد من البصيرة لفهم أسرار "لا إله".

• فكره الرفيع سهم في كبد السماء، وخياله لحام للشمس والقمر.

• رغم أن رهبنته عفة في فطرته، إلا أن فطرته تشتاق للذنب. [٢٦]

وكما هو واضح تركز تصور إقبال للآخر في تلك المرحلة علي

الغرب وحضارته، ولم يتعرض للآخر في بلاده شبه القارة الهندية بالرغم

من وجود ما يشير حفيفة إقبال بها، وذلك راجع في الغالب إلى أن إقبال في تلك الفترة لم يكن قد تخلص بعد من فكرة القومية الجغرافية والتي هاجمها فيما بعد عندما تكشفت له مساوئها، ولهذا كان يضع الشرق وحضارته في جانب، والغرب وحضارته في جانب آخر، وبالتالي وجدناه يمتدح الهند وحضارتها، ويكتب النشيد الهندي (٢٧)، والنشيد الوطني لأطفال الهند (٢٨)، والمعبد الجديد (٢٩)، حيث كانت نظريته نظرة كنية تخلو من التفاصيل، وهو ما تغلب عليه إقبال فيما بعد حين ازدادت ثقافته عمقا، ومشاهداته اتساعاً، فأصبح تعامله مع "الآخر" عندئذ محدداً، وصارت نظريته إليه فيما بعد أكثر دقة ووضوحاً.

وأما المرحلة الثانية فتبدأ بعد أن عاد إقبال إلى الهند، وتبلورت أفكاره، واتخذت شكل فلسفة منظمة ذات عناصر واضحة، وهدف أكثر وضوحاً، وكان هذا الهدف هو إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها العميق، وحثهم على الرجوع إلى دينهم، واستعادة أمجادهم. هذا وقد اعتمد إقبال في سبيل تحقيق هذا الهدف على ثلاثة عناصر أساسية، أولها: تذكير المسلمين بالأمجاد الضائعة. وثانياً: زرع الأمل في قلوبهم من أجل المستقبل المضيئ الذي سيقبل أقدامهم إن هم رجعوا إلى دينهم. وثانياً: حمايتهم، والحفاظ عليهم من الانبهار بأي بريق مؤقت قد لا يكون له أصل من الحقيقة في كثير.

ومن هنا تحدث إقبال عن الأندلس، وقرطبة، وبغداد، ودهلي، والحجاز، وكتب نشيد الأمة الذي قال فيه:

الصين والعرب لنا..... نحن مسلمون، وسائر الدنيا وطن لنا.

أمانة التوحيد في صدورنا..... وليس من السهل محو آثارنا. [٣٠]

ثم كتب "شكوى" و"جواب شكوه"، حاول فيهما تحديد

الأسباب التي أدت الى تراجع المسلمين وتخلفهم عن غيرهم، فقال في

”شكوى“ ما ترجمه الشيخ الصاوي علي شعلان كالتالى:

قيثارتى ملئت بأنات الجوى

لا بد للمكبوت من فيضان

صعدت إلى شفتي لواعج مهجتي

ليبين عنها منطقى ولسانى

أنا ما تعديت القناعة والرضا

لكنما هى قصة الأشجان

يشكوك لك اللهم قلب لم يعيش

إلا لحمد علاك فى الأكوان

وما فى ”جواب شكوى“ ما ترجمه الشيخ الصاوي كذلك فيما

يلي:

عطايانا سحائب مرسلات

ولكن ما وجدنا السائلينا

وكل طريقنا نور ونور

ولكن ما رأينا السالكينا

ولم نجد الجواهر قابلات

ضياء الوحي والنور المبينا

وكان تراب آدم غير هذا

وإن يك أصله ماء أوطينا

ولو صدقوا وما فى الأرض ر

لأجرينا السماء لهم عيوننا [٢١]

ولم يفقد إقبال الأمل في أن يتحرر المسلمون من قيودهم، ويعودوا إلى سابق مجدهم، ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، وإنما كان نابعاً من إيمانه بأن الإسلام هو أقوى محرك لدفع الإنسان إلى النهوض والتقدم من أجل خير بني البشر، ولذا فقد كتب منظومته الرائعة "طلوع إسلام" يبشر فيها بنهضة المسلمين، وبمقدرتهم على بناء عالم جديد، يقول إقبال فيما ترجمه الشيخ شعلان:

تبشّرني السحوم إذا توارت لدى الأسحار بالفجر الوليد
 كأن حقوت ضوء النجم ليلاً يبشر اليمن باليوم الجديد
 مضى النوم الثقيل عن المآقي ونور الشمس آذن بالشروق
 هب الشرق منتبهاً وثارت عزائمه دماء أفي العروق
 فإن عصفت بنا الدنيا فإنا على درب المسيرة دون يأس
 فناء الأنجم الغراء بشرى بمولد كوكب وشروق شمس [٣٢]

ولم يكن هذا الإحساس مبنياً على رد فعل تجاه تقدم "الآخر"، أو حتى استغلاله غير المشروع لبلاد المسلمين وأبنائها، وإنما كان ثقة في أن الإسلام هو الذي يفرض نفسه بما يضم من قيم في التسامح والمساواة واحترام الإنسان وقبوله "الآخر" حتى وإن اختلف معنا ديناً وثقافة، أو لوناً وعرقاً، إذ أن التعصب يمزق بني الإنسان، ويجعل من كل منهم عدواً للآخر، رغم أن الأساس هو "لا إكراه في الدين" و "لكم دينكم ولي دين"، يقول إقبال فيم ترجمه الشيخ شعلان:

أرى الأطماع فرقت البرايا إلى شيع كقطعان البوادي
 يمزق بعضهم في الحرس بعضاً وكلهم لكلهم أعادي
 تعصب بعضهم للون جهلاً وللإقليم والدم والقبيل

بمانشر البلايا فى البرايا وعم الخلق جيلاً بعد جيل
ومصدر فطرة الإسلام حقاً وشرعتها لكل المسلمين
إخاء ينظم الأقطار عقداً ويحتضن الخلائق أجمعينا [۳۳]

وبهذه الروح التى تكن حباً لبني البشر طالما احترام كل منهم
الآخر، وبهذه النظرة التى تساوى بين بنى الانسان طالما تخلص كل منهم
من تعصبه وضيق أفقه، تناول اقبال فى أشعاره الأردية شخصيات عديدة
سمن يمثلون ”الآخر“ سواء من الشرق أو الغرب، واتصف أصحابها
بالعمل على خدمة البشر وتقديم النافع لهم، وتأثر إقبال بهم، وأفرد لهم
مكاناً فى فكره،

وفى النهاية فإننا لا نبالغ إذا قلنا بأن إقبال كان يتبنى عام وجود
مثل هذه التفرقة بين ”أنا“ و”الآخر“، وظل يأمل لو انتهت هذه
الازدواجية، لأنها سبب العداوة، فالتفرقة بين ”أنا“ و”الآخر“ تنبع أولاً
من الاعتقاد بأن ”أنا“ أفضل من هذا ”الآخر“، ويكون التعصب هو أول
ثمار هذا الاعتقاد، فالتفرقة فى نظر إقبال شجرة، وثمارها التعصب،
والتعصب هو الثمرة التى أخرجت آدم من الجنة.

هوامش

۱- کلیات اقبال- بال جبریل - ص: ۱۲۲.

۲- المرجع السابق- الصفحة السابقة.

۳- بانك درا- جواب شکوی- ص ۲۴۷، والبيت هو:

کی محمد سے وفا تو نے تو ہم تیرے ہیں
یہ جہاں چیز ہے کیا، لوح و قلم تیرے ہیں

۴۔ د/ أمجد حسن سيد أحمد، د/ إبراهيم محمد إبراهيم۔ شاعر الشرق
محمد اقبال۔ ص ۶۹۔ القاہرہ ۱۹۹۷ م۔

۵۔ کلیات اقبال۔ بانک درا۔ ص ۱۴۱، والیت ہو:

میں اس کا بندہ بنوں گا جس کو خدا کے بندوں سے پیار ہوگا

۶۔ کلیات اقبال۔ بانک درا۔ ص: ۱۲۳۔

۷۔ المرجع السابق۔ الصفحة السابقة۔

۸۔ کلیات اقبال۔ بانک درا۔ ص: ۱۸۹۔

۹۔ کلیات اقبال۔ بانک درا۔ ص: ۲۵۳۔

۱۰۔ کلیات اقبال۔ ضرب کلیم۔ ص: ۱۴۹۔

۱۱۔ کلیات اقبال۔ بال جبریل۔ ص: ۱۰۹۔

۱۲۔ ولد لونج فیلفوفی بورت لاند بامریکا عام ۱۸۰۷ م، وعمل أستاذاً
للأدب فی مختلف المعاهد العلمية، وتوفی عام ۱۸۸۲ م، وأكثر أشعاره
فی الأخلاقیات، كان فی ذاته إنساناً حسن الخلق طیب القلب، ویحكى
عنه أنه خرج إلى الصيد ذات مرة، واصطاد حیواناً، فتأثر بمنظر دمائه
وموته حتی قطع على نفسه عهداً ألا یقرب الصيد بعدها. انظر: غلام رسول
مهر۔ مطالب بانک درا ص ۵۸۔

۱۳۔ والیت ہو:

It crosse the churchyard with a sigh

And said: not yet! in quiet lie

نترجمہ اقبال ہکذا:

سوئے گور گریباں جب گئی زندوں کی بستی سے

تو یوں بولی نظارا دیکھ کر شہر خموشاں کا

ابھی آرام سے لیٹے رہو، میں پھر بھی آؤں گی
سلا دوں گی جہاں کو، خواب سے تم کو جگاؤں گی

الترجمة العربية:

عند ما وصل نسيم الحياة إلى قبور الفقراء ماراً بقرى الأحياء، ورأت
منظرها قالت:

لتبقوا أنتم نائمين في هدوء، سأعود ثانية، سأجعل الدنيا تنام، ثم أوقظكم
أنتم من نومكم.

انظر: کلیات إقبال۔ بانگ درا۔ ص ۸۸.

۱۴۔ اللورد تینسی سن من أكبر شعراء بريطانيا، ولد عام ۱۸۰۹م، وتوفي
في أكتوبر عام ۱۸۹۲م، وقد نشرت ترجمة إقبال هذه في مجلة مخزن،
عدد نوفمبر ۱۹۰۳م، وكانت في بدايتها تضم تسعة وعشرين بيتاً،
المنظومة في بانگ درا ص ۶۱.

۱۵۔ هو الفيلسوف والشاعر الأمريكي ايمرسون، ولد عام ۱۸۰۳م،
وتوفي عام ۱۸۸۲م.

۱۶۔ كان السير توماس آرنولد أستاذاً للفلسفة في كلية علي كزوه، ثم انتقل
إلى الكلية الحكومية ببلاهور، وعاد إلى بلده عام ۱۹۰۴م، وتوفي عام
۱۹۳۰، ومن أشهر ما كتب "تبليغ الإسلام". ومنظومة ناله فراق نشرت
في مجلة مخزن عدد مايو ۱۹۰۴م، وكانت في بدايتها ثمانين مقطوعات،
ثم حذف منها إقبال ثلاث مقطوعات عند مراجعتها، والمنظومة في بانگ
درا ص ۱۰۴.

۱۷۔ البيت المقصود هنا هو قوله:

تو کہاں ہے اے کلیم ذروہ سینائے علم

تھی تری موجِ نفسِ بادِ نشاطِ افزائے علم

الترجمة:

أین أنت یا کلیم قمة سیناء العلم، کانت أمواج أنفاسک تزید
فرحتی بالعلم وتحمسی له.

۱۸۔ کلیات اقبال۔ بانگ درا ص ۷۴، وقد نشرت آفتاب فی مجلة مخزن
عدد أغسطس عام ۱۹۰۲م، وهي ترجمة لدعاء مشهور من كتب الرجويد
الأربعة.

۱۹۔ کلیات اقبال۔ بانگ درا۔ ص : ۸۸.

۲۰۔ کلیات اقبال۔ بالِ جبریل۔ ص : ۱۱۱.

۲۱۔ کلیات اقبال، بانگ درا۔ ص ۱۵۱.

والأبیا هي:

دیارِ مغرب کے رہنے والو، خدا کی بستی دکان نہیں ہے
کھرا بجے تم سمجھ رہے ہو وہ اب زرِ کم عیار ہوگا
تمہاری تہذیب اپنے خنجر سے آپ ہی خود کشی کرے گی
جو شارخِ نازک پہ آشیانہ بنے گا، ناپیدار ہوگا

۲۲۔ غلام رسول مہر۔ شرح بالِ جبریل۔ ص : ۱۵.

۲۳۔ اصل البيت هو:

میں نے اے اقبال، یورپ میں اسے ڈھونڈا عبث
بات جو ہندوستان کے ماہِ سیماؤں میں تھی

۲۴۔ کلیات اقبال، بانگ درا۔ ص : ۲۶۳.

۲۵۔ کلیات اقبال۔ بالِ جبریل۔ ص : ۱۵۵.

۲۶۔ کلیات اقبال۔ ضربِ کلیم۔ ص : ۹۷.

۲۷، ۲۸، ۲۹ کلیات اقبال۔ بانگ درا۔ ترانہ ہندی۔ ص ۱۰۹،
 ہندوستانی بچوں کا قومی کیت۔ ص ۱۱۳، نیا سوالہ۔ ص ۱۱۴۔
 ۳۰۔ کلیات اقبال۔ بانگ درا۔ ترانہ ملی۔ ص ۱۸۶، وتبدأ بالبيتين
 التالين:

چین و عرب ہمارا، ہندوستان ہمارا
 مسلم ہیں ہم، وطن ہے سارا جہاں ہمارا
 توحید کی امانت سینوں میں ہے ہمارے
 آساں نہیں مٹانا نام و نشان ہمارا

وترجمة الشيخ الصاوي علي شعلان رحمة الله عليه كاملا، وننقل بعضه
 هنا على سبيل المثال:

الصين لنا، والعرب لنا والهند لنا والكل لنا
 أضحى الإسلام لنا ديناً وجميع الكون لنا وطناً
 توحيد الله لنا نور أعددنا الروح له سكناً
 الكون يزول ولا تمحى في الدهر صحائف سؤدنا
 بنيت في الأرض معابدها والبيت الأول كعبتنا

۳۱۔ شاعر الشرق محمد اقبال۔ شکوی۔ ص ۵۶، وجواب شکوی۔ ص ۶۲۔
 ولمنظومتان في ديوان بانگ درا ص ۱۹۰ و ص ۲۲۷۔

۳۲۔ شاعر الشرق محمد اقبال۔ طلوع اسلام۔ ص ۹۱، والمنظومة في
 ديوان بانگ درا من کلیات اقبال ص ۲۹۷۔

۳۳۔ شاعر الشرق محمد اقبال۔ طلوع اسلام۔ ص ۹۱۔

فہرست المصادر والمراجع

- ۱۔ القرآن الکریم
- ۲۔ الصاوی علی شعلان۔ دیوان اقبال۔ القاہرہ۔ مصر ۱۹۲۶ م
- ۳۔ د/ أمجد حسن سید أحمد۔ د/ إبراهيم محمد إبراهيم۔ شاعر الشرق محمد اقبال۔ القاہرہ۔ مصر ۱۹۹۷
- ۴۔ کلیات اقبال ”اردو“۔ لاہور۔ پاکستان ۱۹۷۷ م.
- ۵۔ غلام رسول مہر۔ مطالب بانگ درا۔ لاہور۔ پاکستان ۱۹۸۷ م
- ۶۔ غلام رسول مہر۔ مطالب بال جبریل۔ لاہور۔ پاکستان ۱۹۸۷ م
- ۷۔ د/ سلیم اختر۔ تاریخ ادب اردو۔ لاہور۔ پاکستان ۲۰۰۰ م.
- ۸۔ نسیم قریشی۔ اردو ادب کی تاریخ۔ علی گڑھ الہند ۱۹۷۸ م.
- ۹۔ مفتی شوکت علی فہمی۔ ہندوستان پر اسلامی حکومت۔ دہلی۔ الہند ۱۹۹۴ م.
- ۱۰۔ د/ أحمد محمود السادتي۔ تاریخ المسلمین فی شبه القارة الهندية۔ القاہرہ۔ مصر ۱۹۵۴ م.
- ۱۱۔ د/ أحمد محمود السادتي۔ تاریخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها۔ القاہرہ۔ مصر ۱۹۷۹ م.
- ۱۲۔ د/ إبراهيم محمد إبراهيم، د/ أحمد محمد أحمد، الشعر الأردی الحديث والمعاصر۔ القاہرہ۔ مصر ۲۰۰۳ م.
- ۱۳۔ د/ ابتسام صالح الدین۔ الشعر الأردی منذ البداية۔ القاہرہ۔ مصر ۱۹۹۷ م.
- ۱۴۔ د/ غلام حسین ذوالفقار۔ اردو شاعری کا سیاسی و سماجی پس منظر۔ لاہور۔ پاکستان ۱۹۶۲ م.